

التحول العقدي في المغرب والأندلس بعد عصر الموحدين

The Doctrinal Transformation in the Maghreb and al-Andalus in the Post-Almohad Era

الدكتور: شطة مصطفى أستاذ محاضر - أ -

جامعة عمار ثليجي الأغواط قسم العلوم الإسلامية

البريد الإلكتروني: m.chetta@lagh-univ.dz

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على التحول العقدي عند أهل المغرب العربي والأندلس بعد ظهور دعوة المهدي بن تومرت وقيام دولة الموحدين، فلقد طرأ تغير جذري على أهل المنطقة خلال هذه الفترة بأدلة متعددة من كتب التاريخ والتراجم التي تشهد على هذا التحول، ومن المعلوم أن دولة الموحدين قامت في المغرب على أنقاض دولة المرابطين، أما الأندلس فكانت بعد الفتح تابعة للخلافة الأموية في دمشق، ثم استقر الأمويون بها بعد قيام الدولة العباسية في المشرق بزعامة عبد الرحمن الداخل - صقر قرش ثم بعد القضاء على الخلافة الأموية انقسمت إلى ما يزيد عن عشرين دويلة وهو ما يعرف بعصر ملوك الطوائف، إلى أن قضت عليهم نهائيا دولة المرابطين ثم الموحدين، اللتين كانتا تحكم المنطقتين - المغرب والأندلس - وسنحاول التطرق إلى التحول العقدي الذي طرأ على أهل المغرب والأندلس بعد قيام دعوة المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين. كلمات مفتاحية: المهدي العقيدة، المغرب، الأندلس.

Abstract

This paper aims to shed light on the doctrine transformation of the people of Western Maghreb and Al-Andalus after the appearance of the call of Mehdi Ben Tumart and the establishment of al-Muwwahidun state. There has been a radical change in the region during this period, the history books testify this. Al-Muwwahidun state was built on the rubble of Al-Murabitun state, as for Al-Andalus, it was established after the conquest of Umayyad Caliphate in Damascus, then, the Umayyads settled in there after the establishment of the Abbasid state in the East, that was led by Abdul Rahman El-Dakhel - Quraysh falcon -, after the eradication of the Umayyad Caliphate, it was divided into more than twenty mini-state, that was known as “The era of Taifa”, until the Al-Murabitun then Al-Muwwahidun eliminated them definitively. These two states were ruled the regions of Western Maghreb and Al-Andalus. This paper attempted to address the doctrine transformation of the people of Western Maghreb and Al-Andalus after the appearance of the call of Mehdi Ben Tumart, the founder of Al-Muwwahidun state.

Key Words: Mehdi, Doctrine, Western Maghreb and Al-Andalus.

مقدمة:

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على المصطفى وعلى آله وأصحابه الخلفاء ومن تبع
نحجهم واقتفى أمابعد:

فخلال دراستنا لبعض تفاسير القرآن وكتب الفقه والتاريخ والتراجم لعلماء المغرب
العربي والأندلس؛ تبين لنا أن تحولا عقديا طرأ على سكان المغرب العربي والأندلس بعد
قيام دعوة المهدي بن تومرت في منطقة المغرب الأقصى ، حيث استطاع هذا الأخير أن
يؤثر في العامة والخاصة بعد تلقيه للعلم في المشرق على علماء كبار مثل الإمام أبي حامد
الغزالي وغيره، وادعائه النسب القرشي ثم إنه المهدي المنتظر حتى يضمن قبول الناس

له، واتخذ سلاح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في دولة المرابطين شعاراً لدعوته، مع العلم أن كتب التاريخ لا تثبت نسبه العربي لأنه من أصل أمازيغي، مع أنه لم يستفد من الدولة الفتية التي أنشأها على أنقاض دولة المرابطين؛ واستفاد منها تلميذه وخليفه عبد المؤمن بن علي وبقيت في أعقابه، وكان سكان المغرب العربي والأندلس - قبل قيام هذه الدولة - على العقيدة السلفية، من أجل ذلك جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على هذا التحول العقدي الذي جرى في بلاد المغرب.

تذهب أكثر المصادر والمراجع التاريخية والفقهية وغيرها إلى أن المالكيين الأوائل كانوا على العقيدة السلفية في بداية أمرهم ولم يكونوا أشاعرة، وهناك عدة أدلة تثبت ذلك، فنجد العالم والفقير الكبير ابن أبي زيد القيرواني¹ عالم المالكية في وقته والملقب بمالك الصغير، والذي له كتاب (متن الرسالة في الفقه المالكي) حيث يتبين منه أنه سلفي العقيدة، ورغم إجلاله واحترامه ودفاعه عن أبي الحسن الأشعري لم يتبعه في عقيدته، ومقدمة رسالته المشهورة دليل على ذلك، فهي من الناحية المنهجية ذات صبغة استعراضية لا أثر فيها للاستدلال العقلي، كما أن الأفهام العقدية الواردة فيها لا تختلف عما كان مألوفاً عند أهل السلف، ومن المعلوم أن الفرق بين عقيدة السلف والأشاعرة؛ أن السلف يجرون الأسماء والصفات على حقيقتها دون تعطيل أو تشبيه أو تجسيم، فيثبتون الاستواء واليد لله وغير ذلك من الصفات مما ورد به الشرع ولا يعلم معناه على التفصيل إلا الله

¹ فقيه من أعيان القيروان مولده ومنشؤه ووفاته بها، كان إمام المالكية في عصره يلقب بقطب المذهب وبمالك الصغير، وله: (متن الرسالة في الفقه المالكي)، وترجمته عالية وشهرته تغني عن التعريف به، توفي سنة 386 هـ. مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية "، ت: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط: 1، 1424هـ - 2003 م، ج 1، ص 144

ويفوضون علم ذلك له ، بينما الأشاعرة يؤولون الأسماء والصفات حتى لا تتعرض للتشبيه والتجسيم بالمخلوق، فأولوا الاستواء بالاستيلاء واليد بالقدرة والعين بالبصر وغيرها، وهذا هو الفرق بين المذهبين.

ظهور محمد بن تومرت

تذكر المصادر التاريخية أن أهل المغرب كانوا على عقيدة السلف كما جرى عليه الإمام ابن أبي زيد القيرواني في عقيدته وغيره من العلماء الأوائل، - كما أشرنا سابقاً -، واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر محمد بن تومرت الملقب بالمهدي² في صدر المائة السادسة للهجرة، فانتصر للعقائد الأشعرية، ثم صار العلماء بعد الموحيدين³ يحكون المذهبين في العقيدة مع ترجيح مذهب الأشعرية.⁴

والمهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية كان عالماً، قد تلقى العلم بالمشرق من شيوخ منهم الإمام الغزالي الأشعري الصوفي الزاهد وغيره، وعاد للمغرب وأسس الدولة

² محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي البربري، أبو عبد الله، الملقب بالمهدي، ويقال له مهدي الموحيدين: صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية. وهو من قبيلة (هَرْغَة) من (المصامدة) من قبائل جبل السوس، بالمغرب الأقصى. ولد سنة 485هـ، وتوفي سنة 524هـ، الزركلي: خير الدين، "الأعلام"، ط: 15، دار العلم للملايين، 2002 م، ج 6، ص 228، لكن المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية هو عبد المؤمن بن علي تلميذ المهدي بن تومرت.

³ هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحيدين، لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه. المراكشي: عبد الواحد بن علي التميمي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحيدين"، ص 150

⁴ السلاوي: أبو سفيان مصطفى باخو، "علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم"، جريدة السبيل، المغرب، ط: 1، 1428 هـ - 2007 م، ص 150، و ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ص 286، و ص 302

الموحدية والتي قامت على أنقاض الدولة المرابطية والتي كانت عقيدتها سلفية، قال صاحب المعجب: "وحكي عنه - أي المهدي بن تومرت - أنه ذكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين⁵ بكتبه التي وصلت إلى المغرب، من إحراقها وإفسادها، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس، فقال الغزالي حين بلغه ذلك: ليذهبن عن قليل ملكه، وليقتلن ولده، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضرًا مجلسنا! وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم؛ فقوي طمعه".⁶

ويصف لنا توجه المهدي بن تومرت إلى مدينة فاس في عهد المرابطين بقوله: "فخرج قاصدًا مدينة فاس؛ فلما وصل إليها أظهر ما كان يُظهره، وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم. وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية. وكان أهل المغرب -على ما ذكرنا- ينافرون هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه، شديدًا أمرهم في ذلك؛ فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم، فجرت له مناظرة كان له التفوق فيها والظهور؛ لأنه وجد جَوًّا خاليًا، وألفى قومًا صيًّا عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع. فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام؛ فأمره والي البلد بالخروج؛ فخرج متوجهًا إلى مراكش"⁷، وهي عاصمة المرابطين. ثم يضيف صاحب المعجب إن ابن تومرت ادعى أنه المهدي المنتظر، وهذا في

⁵ قصده أمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي. ولكن هذه القصة التي أوردها المراكشي قصة أسطورية خرافية في نظري لا أساس لها من الصحة، ويصعب تصديقها، وكأنَّ الإمام الغزالي يعلم الغيب، ويتنبأ بملك وخلافة ابن تومرت على المغرب.

⁶ المراكشي: عبد الواحد بن علي التميمي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين"، ص 136

⁷ المراكشي: عبد الواحد بن علي التميمي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين"، ص 140

أيام بدء دعوة الموحدين، والمرابطون في ثبات ولا يعلمون الخطر الذي ينتظرهم من هذه الدعوة التي انطلقت من تينملل⁸ بقوله: "فخرج هو وأصحابه متوجّهاً إلى سُوس؛ فنزل بموضع منها يعرف بتينملل. من هذا الموضع قامت دعوته، وبه قبره، ولما نزل اجتمع إليه وجوه المصامدة⁹، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير، من غير أن يظهر إمرة ولا طلبة مُلك. وألف لهم عقيدة بلسانهم، وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان. فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأُشربت قلوبهم محبته، وأجسامهم طاعته. فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة. وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل، وجعل يذكر المهدي ويشوّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات.

لما قرر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله ... ورفع نسبه إلى النبي؛ وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم. وروى في ذلك أحاديث كثيرة، حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسول الله - رسول الله، ثم صنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سماه: (أعز ما يطلب)، وعقائد في أصول الدين، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات،

⁸ منطقة جبلية وعرة وحصينة، وتقع في أعالي جبال الأطلس في المغرب على نحو 100 كم جنوب غرب مراكش.

⁹ قبيلة بربرية وهي قبيلة المهدي بن تومرت.

فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها. وكان يطن شيئاً من التشيع، غير أنه لم يظهر منه إلى العامة شيء¹⁰.

شهادة المؤرخين:

1. ابن خلدون

نجد العلامة ابن خلدون في مقدمته يؤكد أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد بعد ما كانوا على عقيدة السلف بقوله: "وانطوى هذا الإمام - أي المهدي ابن تومرت - راجعاً إلى المغرب بجرأ متفجراً من العلم، وشهاباً واريماً من الدين. وكان قد لقي بالمشرق أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة. وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآي والأحاديث بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل وإقرار التشابهات كما جاءت. ففطن أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل المرشدة في التوحيد. وكان من رأيه القول بعصمة الإمام على رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامية الذي افتتحه بقوله: "أعز ما يطلب" وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب".¹¹

¹⁰ المراكشي: عبد الواحد بن علي التميمي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين"، ص 141

¹¹ ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، "ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ص 302

2 - المقريري:

يرى مؤرخ الديار المصرية تقي الدين المقريري أيضاً هذا الرأي في كتابه (الخطط) حيث قال: "وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين¹² حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعريّ، تلميذ أبي علي الجبائيّ، وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر... فاستمرّ الحال على عقيدة الأشعريّ بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضاً، لإدخال محمد بن تومرت رأي الأشعريّ إليها، حتى إنه صار هذا الاعتقاد بسائر هذه البلاد، بحيث إن من خالفه ضرب عنقه، والأمر على ذلك إلى اليوم... فانتشر مذهب أبي الحسن الأشعريّ في العراق من نحو سنة ثمانين وثلاثمائة وانتقل منه إلى الشام، فلما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانيّ على هذا المذهب، قد نشأ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوريّ، وصار يحفظها صغار أولاده، فلذلك عقدوا الخناصر وشدّوا البنان على مذهب الأشعريّ، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب.

في أيام مواليتهم الملوك من الأتراك، واتفق مع ذلك توجه أبي عبد الله محمد بن تومرت أحد رجالات المغرب إلى العراق، وأخذ عن أبي حامد الغزالي مذهب الأشعري، فلما عاد إلى بلاد المغرب وقام في المصامدة يفقههم ويعلمهم، وضع لهم عقيدة لقفها عنه

¹² صلاح الدين الأيوبي صاحب المواقف العظيمة والفتوحات الجليلة والهمم العالية؛ الذي حرر القدس وقضى على الدولة الفاطمية في مصر.

عاقبتهم، ثم مات فخلفه بعد موته عبد المؤمن بن عليّ القيسيّ، وتلقب بأمر المؤمنين، وغلب على ممالك المغرب هو وأولاده من بعد مدّة سنين، وتسموا بالموحدين، فلذلك صارت دولة الموحدين ببلاد المغرب تستيحي دماء من خالف عقيدة ابن تومرت، إذ هو عندهم الإمام المعلوم، المهديّ المعصوم، فكم أراقوا بسبب ذلك من دماء خلائق لا يحصيها إلّا الله خالقها، كما هو معروف في كتب التاريخ، فكان هذا هو السبب في اشتها مذهب الأشعريّ وانتشاره في أمصار الإسلام، بحيث نسي غيره من المذاهب، وجعل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه... إلّا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - رضي الله عنه -، فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف، لا يرون تأويل ما ورد من الصفات، إلى أن كان بعد السبع مائة من سنين الهجرة، اشتهر بدمشق وأعمالها تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحكم بن عبد السلام بن تيمية الحرّانيّ، فتصدّى للانتصار لمذهب السلف وبالغ في الردّ على مذهب الأشاعرة، وصدع بالنكير عليهم وعلى الرافضة، وعلى الصوفية، فافترق الناس فيه فريقان، فريق يقتدي به ويعوّل على أقواله ويعمل برأيه، ويرى أنه شيخ الإسلام وأجلّ حفاظ أهل الملة الإسلامية. وفريق يبدّعه ويضلله ويزري عليه بإثباته الصفات، وينتقد عليه مسائل منها ما له فيه سلف، ومنها ما زعموا أنه خرق فيه الإجماع، ولم يكن له فيه سلف، وكانت له ولهم خطوب كثيرة، وحسابه وحسابهم على الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وله إلى وقتنا هذا عدّة أتباع بالشام وقليل بمصر... فهذه عقيدة الأشاعرة التي عليها الآن جماهير أهل الأمصار الإسلامية، والتي من جهر بخلافها أريق دمه".¹³

¹³ ينظر: المقرئبي: تقي الدين أحمد بن علي، "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 1، 1418 هـ، ج: 4، ص 164 وص 192، بتصرف.

3. السلاوي:

يوضح لنا المؤرخ المغربي السلاوي التحول العقدي في بلاد المغرب والأندلس بقوله: "وأما حالهم - يعني أهل المغرب والأندلس - في الأصول والاعتقادات، فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضة ثانياً، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف - رضي الله عنهم - في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر، وهو والله أحسن المذاهب وأسلمها، واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة فرحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة وتخريجه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق عليه النقل والشرع ويسلمه العقل والطبع، ثم عاد محمد بن تومرت إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه الموحدين تعريضاً بأن من خالف طريقته ليس بموحد، وجعل ذلك ذريعة إلى السيطرة على ملك المغرب، لكنه ما أتى بطريقة الأشعري خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيوعية حسبما يعلم ذلك بإمعان النظر في أقواله وأحواله وأحوال خلفائه من بعده، ومن ذلك الوقت أقبل علماء المغرب على تعاطي مذهب الأشعري وتقريره وتحريره درساً وتأليفاً إلى الآن..."¹⁴، وقال أيضاً:

"..... ثم إن المهدي رحل إلى المشرق في طلب العلم ولقي مشايخ وسمع منهم وأخذ عنهم علماً كثيراً وحفظ جملة من حديث رسول الله ونبغ في علم الأصول والاعتقادات، وكان في

¹⁴ السلاوي: شهاب الدين أبو العباس الناصري، " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، ت: جعفر الناصري/ محمد

الناصر، دار الكتاب - الدار البيضاء المغرب، طبعة 1376هـ/1956م، ج 1، ص 196

جملة من لقي من العلماء؛ الشيخ الغزالي - رحمه الله لازمه ثلاث سنين وكان الشيخ أبو حامد كثيراً ما يشير إلى المهدي ويقول: إنه لابد أن يكون له شأن ونما الخبر بذلك إلى المهدي فلم يزل يتقرب إلى الشيخ بأنواع الخدمة حتى أطلعه على ما عنده من العلم في ذلك، فلما تحققت عنده الحال استخار الله وعزم على الترحال فخرج قاصداً بلاد المغرب غرة ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة، ولزم في طريقه درس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى أن اجتمع به عبد المؤمن بن علي فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والعسر واليسر، ثم قدم بلاد المغرب واستقر بمراكش وكانت له فصاحة وعليه مهابة فأخذ يطعن على المرابطين وينسبهم إلى الكفر والتجسيم ويشيع عند من يثق به ويسكن إليه أنه المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.¹⁵

رابعاً: حال السكان قبل وبعد قيام دولة الموحدين

ومن هنا يتضح لنا كيف كان سكان المغرب والأندلس على العقيدة السلفية، وبدأ تحولهم إلى العقيدة الأشعرية بقيام دولة الموحدين، مع العلم أن دولة المرابطين والموحدين كانتا تضمان الأندلس والمغرب، ونستطيع أن نكشف المبادئ التي قامت بها دولة الموحدين والتغيير الذي طرأ على السكان من خلال كتاب (دولة الموحدين) للدكتور الصلاحي حيث قال: "ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب والأندلس، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكون قاعدة شعبية يتكئ عليها في ساعات الخطر، فلما اطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذاً الأمر بالمعروف ستاراً

¹⁵المصدر السابق، ج 2، ص 90

لتحقيق غايته وطريقاً لإظهار مفاصد دولة المرابطين، فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصاري والمجوس... إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين واتهمهم بالتجسيم وهم براء منه وبعد أن فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاءه في جبل إيجليز لقربه من العاصمة المرابطية مراكش، فانتقل إلى تينملل في قلب جبال الأطلسي الكبير عام (518هـ/1124م) واتخذ قاعدة لدولته الناشئة، وقد بقي فيها حتى وفاته عام (524هـ/1129م)¹⁶.

ثم يضيف الصلابي عن عقيدة المهدي ابن تومرت والتحول الذي حدث بالمغرب بعد قيام دعوته بقوله: "إن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح.

لقد جعل ابن تومرت من المهدية عقيدة ألزم بها أتباعه وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادّعه لنفسه أمر العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي المعصوم، ثم أشاع ذلك بين أتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم، دون حرج أو تردد... وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا الأمر في بادئ أمره، فبدأ أولاً بالتلميح لهم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن

¹⁶ ينظر: الصلابي: علي محمد، "دولة الموحدين"، دار البيارق للنشر، عمان، ص33 وص36، بتصرف.

الكذب في دعواه أنها تتمثل فيه، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي ثم بالمهدية ثم بالعصمة¹⁷.

كما وافقهم في نفي الصفات عن الله حيث قال حينما تحدث عن صفات الله: "واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق التشبيه والشريك والنقائص والآفاق والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن". لقد تبني ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسنة، ولهذا سَمَّى أصحابه بالموحدين، لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله كما كان يسمى أتباعه بالمؤمنين ويقول لهم: "ما على وجه الأرض من يؤمن بإيمانكم".

إن بن تومرت من كبار الدعاة إلى المذهب الأشعري بل أخذ منه أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السنة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر، لأنهم زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله¹⁸.

خامساً: عقيدة بعض العلماء من الفقهاء والمفسرين قبل وبعد قيام دولة الموحدين:

¹⁷ والدليل على بطلان عقيدة المهدي والعصمة التي قال بها، أن أقرب المقربين منه، عبد المؤمن بن علي بعد قيام الدولة،

تغلى عنها وعن كل الرسوم التي جاء بها المهدي بن تومرت وكذلك أبناؤه من بعده.

¹⁸ ينظر: الصَّلَائي: علي محمد، "دولة الموحدين"، ص 46 وص 50، بتصرف.

1. ابن أبي زيد القيرواني: يعد الفقيه المالكي والملقب بمالك الصغير صاحب كتاب (متمن الرسالة) والتي كانت تلقب: "بإكورة السعد وبزبدة المذهب" لأنها أول مختصر ظهر في المذهب المالكي، ولها عدة شروح وحواشي، منها شرح الكتاني (الفتح الرباني على توحيد رسالة ابن أبي زيد القيرواني)، وشرح النَّفْرَوي (الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني) وشرح الأزهري (الثمر الداني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني) وغيرهم¹⁹، وأقبل عليها العلماء بالدراسة والحفظ والتحليل، واستقبلتها الأمة بالقبول منذ أن صدرت وإلى يومنا هذا؛ وترجمت لعدة لغات في عصرنا، وتتضح عقيدة السلف من مقدمة الرسالة في (باب ما تنطق به الألسنة وتعتقد الأفئدة من واجب أمور الديانات) بقوله في مسألة الصفات: "وأنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو في كل مكان بعلمه"²⁰، وقال عنه الحافظ الذهبي: "وكان - رحمه الله - على طريقة السلف في الأصول، لا يدري الكلام، ولا يتأول، فنسأل الله التوفيق."²¹

2. مكّي بن أبي طالب: إن الدارس لتفسير مكّي بن أبي طالب القيسي²² في تفسيره (الهداية إلى بلوغ النهاية)، يجده يقرر العقيدة السلفية في تفسيره، فهو: يفسر آيات الصفات على ظاهرها دون تأويل على مذهب الأشاعرة، وقد عاش قبل ظهور دعوة

¹⁹ إلا أن جلّ الشروح المطبوعة خالفت ما كان عليه الإمام ابن أبي زيد رحمه الله من السير على طريقة السلف الصالح من نبذ الكلام والتأويل.

²⁰ النفراوي: أحمد بن غانم، " الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني"، دار الفكر، 1415هـ - 1995م، ج1، ص46

²¹ الذهبي: شمس الدين بن قَائِمَاز، "سير أعلام النبلاء"، ج12، ص491

²² هو أبو محمد مكّي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني القرطبي المقرئ، ولد بمدينة القيروان سنة

355هـ، وتوفي بقرطبة سنة 437هـ، الزركلي: خير الدين، "الأعلام"، ج7، ص286

المهدي بن تومرت، لأن تفسيره من تفاسير القرن الخامس الهجري، ونعطي مثالا على ذلك من تفسيره، فعند تفسير قوله تعالى: "وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء" المائدة: 64، أثبت أن الله يدا تليق بمقامه، دون تأويل، فقال: "واليد - عند أهل النظر والسنة في هذا الموضع وما كان مثله - صفة من صفات الله، ليس بجارحة، فعلينا أن نصفه بما وصف به نفسه "ليس كمثله شيء" الشورى: 11، فلا يحل لأحد أن يعتقد الجوارح لله، إذ ليس كمثله شيء، وأن ما وقع من ذكر هذا وشبهه، وذكر الجيء والإتيان، صفات لله، لا أنها فيها انتقال وحركة وجارحة، فسبحان من ليس كمثله شيء من جميع الأشياء، فلو أنك أثبت له حركة أو انتقالا أو جارحة لكنت قد جعلته كبعض الأشياء الموجودة، وقد قال جل شأنه: "ليس كمثله شيء" الشورى: 11، فاحذر أن يتصور في عقلك أن الباري جل ذكره يشبه شيئا من الأشياء التي عقلت وفهمت، ومتى فعلت شيئا من هذا فقد أهدت، وأهل السنة يقولون: أن يديه غير نعمته"²³.

3- ابن عبد البر: نجد المحدث والفقيه المالكي ابن عبد البر²⁴ والذي كان قبل قيام الدعوة المهديّة على عقيدة السلف حيث وصفه الذهبي في سير أعلام النبلاء بذلك فقال: "

²³مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية، ج3، ص 1801

²⁴يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر: من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بحاثة. يقال له حافظ المغرب. ولد بقرطبة. ورحل رحلات طويلة في غربي الأندلس وشرقيها. وولي قضاء لشبونة وشتيرين.

ولد سنة 368هـ، توفي بشاطبة سنة 463هـ، الزركلي: خير الدين، "الأعلام"، ج8، ص240

وكان في أصول الكلام على مذهب السلف، لم يدخل في علم الكلام، بل اقتفى آثار مشايخه رحمه الله²⁵.

4. الإمام القرطبي: يرى الإمام القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) منهج الأشاعرة في تفسيره لآيات العقائد واتجاههم في تأويل آيات الصفات تنزيهاً للمولى عن الشبه بمخلوقاته، وهذا اتجاه طبيعي منه لأنه كان بعد نشر عقيدة المهدي بن تومرت، وفي عز الدولة الموحدية، فعند تفسير قوله تعالى: "وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء" المائدة: 64، قال القرطبي: يد بسطة، أي منطلقة منبسطة. "ينفق كيف يشاء" أي يرزق كما يريد. ويجوز أن تكون اليد في هذه الآية بمعنى القدرة، أي قدرته شاملة، فإن شاء وسع وإن شاء قتر²⁶.

5. ابن جزى الكلبي: يرى المفسر الأندلسي ابن جزى الكلبي²⁷ في تفسيره (التسهيل لعلوم التنزيل) بعض آراء مذهب التأويل في تفسيره لآيات الأسماء والصفات، حيث نجد أن هذا المفسر عاش فترة طويلة بعد سقوط دولة الموحدين، فعند تفسيره لقوله تعالى: "فأينما تولوا فثم وجه الله" البقرة: 115، حيث لم يثبت الوجه لله بنص هذه الآية على عقيدة السلف، فقال: "وجه الله المراد به هنا رضاه كقوله: ابتغاء وجه الله أي رضاه، وقيل: معناه الجهة التي وجهه إليها، وأما قوله: "كل شيء هالك إلا وجهه" القصص: 88، و قوله تعالى: "ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام" الرحمن: 27، فهو من

²⁵الذهبي: شمس الدين بن قَائِمَاز، "سير أعلام النبلاء"، دار الحديث - القاهرة، 1427هـ-2006م، ج13، ص357

²⁶القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"، ت: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج6 ص240

²⁷محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزى الكلبي، أبو القاسم، فقيه من العلماء بالأصول واللغة، من أهل غرناطة،

ولد سنة 693هـ، وتو في سنة 741هـ. الزركلي: خير الدين، "الأعلام"، ج5، ص325

المتشابه الذي يجب التسليم له من غير تكييف، ويرد علمه إلى الله، وقال الأصوليون: هو عبارة عن الذات أو عن الوجود، وقال بعضهم: هو صفة ثابتة بالسمع²⁸.

خاتمة

و في ختام هذا البحث يمكن القول أن المالكية الأوائل من أهل المغرب والأندلس تمسكوا بمذهب مالك فأخذوا منه الأصول والعقائد والفروع والسلوك، ولفظوا كل العقائد التي لم تأت عن طريقه، وهي العقيدة السلفية لأن الإمام مالكا كان سلفي العقيدة، وذلك عندما سئل عن معنى قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى" طه: 5، فقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة".

وبعد مجيء الشيعة الفاطميين وحركة الخوارج والمعتزلة التي ظهرت ببعض المناطق في المغرب الإسلامي، خاضوا في سبيل ذلك صراعاً مريئاً معهم، إلا أن الأمر اختلف تماماً مع العقيدة الأشعرية؛ إذ لم تلق تلك المعارضة الحادة التي واجهت باقي الفرق، بل دخلت في بداية أمرها بهدوء واعتنقها بعض الخاصة، ثم ما فتئت أن عممت بواسطة دولة الموحدين بحد السيف بعد القضاء نهائياً على دولة المرابطين والتي كانت عقيدتها سلفية بادئ الأمر.

²⁸ ابن جزى الكلبي: أبو القاسم، محمد الغرناطي، "التسهيل لعلوم التنزيل"، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم،

بيروت، ط: 1، 1416 هـ، ج 1، ص 95

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - القرآن الكريم
- 2 - ابن جزى الكلبي: أبو القاسم، محمد الغرناطي ، " التسهيل لعلوم التنزيل "، ت: عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم، بيروت، ط:1.
- 3 - ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد " ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر"، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط:1، 1408 هـ - 1988 م.
- 4 - الذهبي: شمس الدين بن قَائِمَاز، "سير أعلام النبلاء" ، دار الحديث - القاهرة، 1427هـ - 2006م.
- 5 - الزركلي: خير الدين، "الأعلام"، ط:15، دار العلم للملايين، 2002 م.
- 6 - السلاوي: أبو سفيان مصطفى باخُو، " علماء المغرب ومقاومتهم للبدع والتصوف والقبورية والمواسم"، جريدة السبيل، المغرب، ط:1، 1428 هـ - 2007 م.
- 7 - السلاوي: شهاب الدين أبو العباس الناصري، " الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، ت: جعفر الناصري/ محمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء المغرب، طبعة 1376هـ/1956م.
- 8 - الصَّلَائي: علي محمد، " دولة الموحدين"، دار البيارق للنشر، عمان.
- 9 - القرطبي: أبو عبد الله محمد الأنصاري، " الجامع لأحكام القرآن"، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط:2، 1384هـ - 1964 م.
- 10 - مخلوف: محمد بن محمد، " شجرة النور الزكية في طبقات المالكية"، ت: عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط:1، 1424هـ - 2003 م.
- 11 - المراكشي: عبد الواحد بن علي التميمي، " المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين"، ت: الدكتور صلاح الدين الهواري، ط:1، 1426هـ - 2006م، المكتبة العصرية، بيروت.

- 12 - المقريري: تقي الدين أحمد بن علي، " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار "، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1418 هـ.
- 13 - مكّي، ابن أبي طالب القيسي، "الهداية إلى بلوغ النهاية"، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.
- 14 - النفراوي: أحمد بن غانم، " الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني"، دار الفكر، 1415هـ - 1995م.